

## التيار الشككي

احسب ان الذي اضر بدراسة القصة العربية بل بدراسة النثر العربي كله هو ذلك الفهم الذي واجه به الدارسون تراثنا النثرى .. وهو فهم يقوم على اساس البحث عن صورة معينة من النثر تكثر فيها الاصنعة ، وتظهر فيها مجالات التلاعب البلاغى والقدرة على الرصف والتنميق الشكلى .. وكان من نتيجة هذه النظرة ان انصرف جهد الباحثين الى التنقيب عن بغيتهم فوجدوها فى الجاهلية فى انسجع والخطابة ، ووجدوها فى صدر الاسلام فى الخطابة والرسائل .. ورفض الباحثون جميعا غير هذا من الصور النثرية .. ولكنهم احسوا ان هذا الذى ارتضوه يكاد يبدأ بدايته الحقيقية منذ العصر الاموى ، وأن الصور الاخرى التى جاءتهم عما سبقه من عصور لا تكفى بل تكاد لا تثبت صحتها للناقد الخبير ، فشاءوا أن يخرجوا من المعركة كلها حين اعلنوا ان النثر الجاهلى ضاع ، وان ما جاء عن عصر صدر الاسلام فيه شك كبير وان الكتابة بدأت بعبد الحميد ..

وهذا الذى نقلوه عن عبد الحميد يمثل ما ارتضوه من صور النثر ، بل ويمثل فهمهم للنثر الفنى ومهمته ، فعبد الحميد

كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) « كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال » فاذا بحثت عن سر بلاغته وجدتها الترسل والترادف والحال .. وكلها كما ترى خصائص شكلية اعجبوا بها لسبب او لآخر فحملوها وحملوا الناس عليها حملا ..

ونحن نريد أن نبحت عن السر فى هذا التيار الشكلى الذى املى على دارسى فن العرب القولى اتجاههم ونظرتهم ..

التاريخ يقول ان الموالى قفزوا الى الصفوف الاولى فى الحياة الثقافية منذ الدولة الاموية فما نكاد نصل الى عصر هشام بن عبد الملك حتى نرى على رأس ديوانه سالما مولاه ، ويأتى بعده تلميذه عبد الحميد وهو مولى أيضا ، وعلى يد هؤلاء وايدى غيرهم من غير أبناء العربية الاول بدا عصر الشكل والاهتمام به .. وطبيعى لانسان يتعلم لغة جديدة أن يلجأ الى الزينة والحلية اما لظهار تفوقه على اهل اللغة الاصليين وأثبات علمه بأسرار لغتهم ، أو لعدم احساس حقيقى بالروح الكامنة فى اللفظ فى حد ذاته من حيث كونه شحنة دلالات متوارثة ، يغنى حين يورده الكاتب عن كل محاولات الصنعة الاسلوبية فى الابانة عن معناه ودلالته النفسية . بل انك حين تتعمق درس هذه الصور البلاغية التى اتوا بها تحس فيها أن للفظ دلالة الموسيقى والنغمية كما له دلالاته القاموسية ، ولكنه وسط الرصف والحيل البيانية يكاد يفقد دلالاته النفسية المتوارثة ،

ويكاد يحل كل لفظ محل أخيه ما دام مساويا له في المعنى دون ما اهتمام بشحنته العاطفية .. وقد كان من سمات عبد الحميد الترادف ، ومعنى الترادف ببساطة أن الكلمة تخلى من كل شحناتها المتوارثة لتغدو قالب طوب يرص الى جوار غيره من القوالب ويساويها ليخرج بناء هندسيا جميلا في شكله ، فقيرا الفتر كله في الدلالات انفسية ..

واللغة العربية تكاد تقف وحدها في كثرة ما فيها من مترادفات ، والدراسات الادبية المحدثه تحاول أن تنفى هذه الظاهرة التى تقضى على قيمة اللغة الأدبية من حيث قيمتها فى الاستعمال فى الابانة عن نفسية قائلها وأحاسيسه ..

وسجع الكهان الذى عرف فى الجاهلية ضرب من الشعوذة اللفظية كما قلنا من قبل ، وهو ليس فنا وليس أدبا ، وإنما هو عبث يعتمد على الجرس اللفظى . وأحسب أن هذا هو السر فيما تنقله الينا كتب السيرة والخبار من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنه ، وأن صحابته امتنعوا عنه بل ورفضوه رفضا قاطعا .. وليس هذا الا لأنه تزوير عقلى ، ولهد بلا دلالة حقيقية .. ولكن السجع يعود بصورة خطيرة فى العصور التالية ، وتعود معه قيود شكلية جديدة .. ونجد الدارسين القدماء والمعاصرين جميعا يقبلون كل هذا فى رضاء ، ويقيمون أبحاثهم على أساس دراسة المهارة الشكلية عند الكتاب ، بل ودفعون بعضهم درجة ويخفضون غيرهم درجات بحسب مقدار

ما يظهر في أعمالهم من مهارات حرفية . . بل يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه السالف متسائلا « ولكن هل وجدت الكتابة الفنية التي يعتمد فيها الكاتب على التعبير والتنميق ، وان يذيعها في الناس كما يذيع الموسيقار أو المصور اثره الفني ؟ اما ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نلمح فيه اثرا من هذا الجهد الفني الذي يريده الفنانون لآثارهم » .

واحسب ان هذه العبارة كافية للدلالة على ما نريد . . والدكتور شوقي يتبعها بعدة نصوص من كتابات النبي ليثبت أنها لا تعرف ما اسماء بالتنميق والتجوير . . وهذا في حد ذاته دليل على ما نقول من ان هذا الجهد اللغوي لا ينبعث عن فطرة سليمة وقدرة حقيقية وانما هو وليد رغبة في اظهار المهارة العقلية وسعة الاطلاع اللغوي مما لم يكن العرب — وأولهم النبي — في حاجة الى اثباته ، انما الذين احتاجوا اليه هم الاغراب الذين دخلوا حياة العرب واستعملوا لغتهم . .

والكتاب النابهن عند الدراسين تجدهم جميعا كتابا رسميين يعملون في الدواوين ويؤجرون على ما يكتبون ، بل ان ما يكتبون انما يلقي اليهم من الخليفة أو الوزير القاء ، وعليهم ان يصوغوه مثل هذه الصياغات التي أسماها الدارسون بالبلاغة . . وما كانوا يستطيعون ان يلوا مناصبهم ويصبحوا موظفين فالديوان الا اذا اظهروا تفننا وابتكارا (وبلاغة وبيانا) . .

فهؤلاء انهم خالقو هذا اللون من الكتابة الذي شغل

دارسى النثر حتى صرفهم عن غيره .. والذى جعل من الصورة  
التي ينقلونها الينا للنثر العربى صورة شوهاء بلا دلالة انسانية  
ولا غناء فنى حقيقى ..

## التدوين

ولسنا حين نرفض هذه الصورة كلها مغالين او متجنين  
بل نحن نسير مع منطق التاريخ والحضارة . فليس العرب  
كأمة وكشعب أتل من غيرهم من الامم والشعوب حاجة فى الابانة  
عن نفوسهم بلون من ألوان الفن .. وخاصة اذا كان هذا الفن  
موجودا بالفعل عرفوه فى جاهليتهم وفى اسلامهم بصورة واضحة  
جلية وان أهملها الدارسون ..

فالدكتور شوقى ضيف يقرر فى موضع من كتابه ان الكتابة  
التاريخية قد فقدت اكثرها الا ما بقى من روايات فى الطبرى وابن  
هشام وابن اسحق ، وان من يرجع الى هذه الكتابة يلاحظ أنها  
كانت بادئة وانها لم تتطور بالسرعة التى تطورت بها الكتابة  
السياسية .. وهو يعنى انها لم تنحرف كما انحرفت غيرها من  
صور الكتابة .. ويقرر الأستاذ أحمد أمين فى فجر الاسلام ان  
القصص قد نما فى العصر الأموى بسرعة لأنه يتفق مع ميول  
العامية .. والعامية هنا تعنى بطبيعة الحال غير الملوك والوزراء  
وكتاب الدواوين ، أى كل الناس ..

\* \* \*

فى نفس العصر الذى ظهرت فيه الكتابة الديوانية وتطورت الى ان تصل الى صورتها المتكاملة عند عبدالحميد وأستاذه سالم نجد حركة أخرى قد سبقتها الى الظهور ، تلك هى حركة التأليف القصصى الروائى أو اذا ما أسميناها بالاسم الذى عرفت به فهى حركة التدوين التاريخى . ولو أن حركة التدوين قد اشتدت فى العصر العباسى الا أن بدايات لها قد ظهرت فى العصر الاموى . فابن النديم فى الفهرست يذكر أن زياد بن أبىه المتوفى عام ٥٣ هـ قد ألف كتابا فى مثالب العرب ، وذكر المؤرخون كتابا لدغفل النسابة البكرى المتوفى فى عام ٦٠ هـ اسمه التظافر والتناصر ، كما يذكر ابن سعد فى طبقاته أن عبد الله بن عباس المتوفى عام ٦٨ هـ كانت له مدونات كثيرة تظهر لنا صورة منها فى الكتب المتأخرة ككتاب التيجان لوهب بن منبه الذى ينقل عنه روايات حول ذى القرنين . . ولعبيد بن شرية الجرهمى المتوفى عام ٧٠ هـ تقريبا كتاب فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها . . يقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه « نشأة التدوين التاريخى عند العرب » « هو ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين ويلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية — أى المعنى بها — والقصص الاسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الاسرائيليين . ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الاسلامية المتأخرة من امثال عنتره والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهمة . ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها ، وفصاحتها العربية . ولعلنا لا نشتمط

كثيرا حين نقارنها بشاهنامه الفردوسى الشعرية التى تتناول تاريخ الفرس منذ اقدم العصور حتى الفتح الاسلامى ، ويؤسفنا كل الاسف ضياع الجزء الاخير منها » .

فاذا ما تقدمنا قليلا الى عصر عبدالحميد وسالم وجدنا من اصحاب المؤلفات ابان بن عثمان المتوفى عام ١٠٥ هـ مؤلفا فى المغازى ، وعروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ مؤلفا فى التاريخ ، ووهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ مؤلفا فى سير ملوك اليمن ، ويقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه السالف الذكر « ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض فهما يطلتان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع . وينونان الحوادث التاريخية بأطراف خيالية قد تخرج بها الى حد الخيال والاسطورة . كما يدخلان فى تاريخها الكثير من الحوادث التى لا اصل لها ولذلك يصدق عليهما اسم القصصى التاريخى اكثر من اى نعت آخر . ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية » .

### الذوق العربى

هذه الحركة لم تظهر فجأة ولا نتيجة لحاجة الدولة الرسمية وانما هى بلا شك استمرار لحركة سبقتها فى الجاهلية عنيت بالقصص وحكايات التاريخ والابطال وحفلت بالمروروث من الاساطير العديدة واستمرت اثناء الاسلام ، ثم احتاجها المسلمون حين اتسعت رقعة الدولة وتشابكت صور الحياة وتعدت ودخل

حياتهم أبناء أجناس أخرى يحملون ثروات أخرى ضخمة من التراث القصصى واحتاجها المسلمون لتثبيت المعانى الدينية وتدوين احداث الرسالة وسيرة الرسول ولتفسير اشارات القرآن الكريم الى احداث التاريخ فيما أورد من قصص ..

ويروى المسعودى عن معاوية أنه « كان يستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتية الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » .

وهذا النص نريد ان نخرج منه بنتيجتين : الاولى ان الذوق العربى كان يميل الى هذا اللون من الانتاج ، اعنى القصص .. ومعاوية بعد عربى يمثل الذوق العربى الاصيل الذى كان يعنى عناية كبيرة بأحاديث من مضى .. وكتاب دغفل النسابة عبارة عن مجالس وأسمار دارت فى بلاط الخليفة معاوية ... أما كتاب اخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية فيقول عن معاوية « وكانت افضل لذاته فى آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى ، فقال له عمرو بن العاص لو بعثت الى الجرهمى الذى بالرقعة من بقايا من مضى فانه أدرك ملوك الجاهلية وهو اعلم من بقى اليوم

في حديث العرب وانسابها ، وأوصفه لما مر عليه من تصاريف  
الدهر . فبعث اليه معاوية فأتى في محمل بعد أيام كثيرة وشدة  
شوق من معاوية اليه ، فدخل عليه شيخ كبير السن صحيح البدن  
ثابت العقل منتبه ذرب اللسان كأنه الجذع فسلم على معاوية  
بالخلافة فرحب به معاوية وقال له انى اردت اتخاذك مؤدبا لى  
وسميرا ومقوما ، وانا باعث الى اهلك وانقلهم الى جوارى  
وكن لى سميرا فى ليلى ووزيرا فى امرى » .

ثم يمضى الكتاب يذكر ان الليالى مرت على معاوية وعبيد  
فى سمر متصل ، وعبيد يروى واهل ديوان معاوية وكتابه يدونون  
ومعاوية نفسه يسأل ويستزيد ويناقش ..

ومن قبل ذكرت لك امر تميم الدارى الذى قص فى مسجد  
الرسول فى خلافة عمر وخلافة عثمان وهو الذى ذكر للنبي صلى  
الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال .. ويروون عن على بن  
أبي طالب انه طرد القصاص من المسجد باستثناء الحسن البصرى ..

وفى كتاب القضاة للكندى ان كثيرا من القضاة كانوا يعينون  
قصاصا الى جوار عملهم الاصلى ، فيقول ان اول من قص بمصر  
سليم بن عتر التجيبى فى سنة ٣٨ هـ وجمع له القضاء الى القصص  
ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص .. ومفهوم ان القصاص هنا  
يجمعون بين رواية الحكايات المأثورة وبين الوعظ الدينى .

والذى اريد ان اخرج به من هذا كله ان الذوق العربى كان

يميل الى هذا اللون من الانتاج ويقبل عليه اقبالا شديدا دعة معاوية الى تعيين قاص بالمسجد يقص على الناس ما أسماه المقريزى فى خطفه بقصص الخاصة تفرقة منه بينه وبين قصص العامة التى كان يجتمع فيها النفر من الناس حول قاص يسمعون اليه ..

ووجود هذا اللون من النثر فى عصور الإسلام المبكرة ، واعتراف الخلفاء الراشدين به ، وسماحهم بتداوله فى مسجد رسول الله ، الى جوار ما نراه من تذوق معاوية له تذوقا يدفعه الى استقدام القصص وتدوين ما يقولون واضاعة أكثر الليل فى الاستماع اليهم ، كل هذا يدل على أن القصة كانت شيئا فى طبيعة العربى منذ قديم لم يجد ولاة أمره بعد الإسلام الا الاعتراف به واقتراره ، ثم العمل على توجيهه بما يخدم دعوة الدين الجديد ، او الدعاوى السياسية المختلفة كما سنرى فيما بعد ..

والنتيجة الثانية التى نريد أن نخرج بها من نص المسعودى عن معاوية أن نشأة التدوين لم تتأخر حتى العصر العباسى ، بل نحن نرى معاوية فى مطلع العصر الاموى يقرأ له غلماناه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، كما نرى فى كتاب عبيد ان معاوية كان يأمر أهل ديوانه بتدوين ما يقول .. وهذه الدفاتر لم تكن بدعا فى هذا العصر فلا شك أنه كان قبل الإسلام تدوين . وقد جاء فى سيرة بن هشام أن سويد بن صامت قدم مكة حاجا او معتمرا ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده

وشرفه ونسبه .. فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام ، فقال له سويد : فلفل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك به ، قال : « مجلة لقمان .. » اى الصحيفة التى فيها حكم لقمان ..

وكان الرسول عليه السلام يتخذ من صحابته كتبه للوحى .. ويروى ابن النديم فى الفهرست انه كان بمدينة ( الحديثة ) رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب .. « له خزانة لم ار لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية والكتب القديمة » ، ويمضى ابن النديم يذكر انه رأى كتب هذا الرجل فرأى فيها مصحفا بخط خالد بن أبى الهياج صاحب على كما رأى فيها بخط الامامين الحسن والحسين ..

فالتدوين اذن لم يتأخر كل هذا التأخير الذى حسب مؤرخو النثر وانما هو معروف قبل الاسلام ، وعمادون قبل الاسلام من اخبار وقصص نقل القاصون بعد هذا ، بل ونقل المؤرخون والرواة الى من دونوا .. ويروى ابن خلكان والزبيدي فى طبقاته وكذا الجاحظ فى البيان والتبيين « ان ابا عمرو بن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ، ثم انه تقرا اى تنسك فاخرجها او احرقها كلها ، فلما رجع الى علمه الاول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة اخباره عن اعراب

تد ادركوا الجاهلية » . . ويقول ابن هشام في الجزء الثاني من  
النسرة: «وبلغنى ان رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبنا عندهم .  
فكلما مات رئيس عندهم فأفضت الرياسة الى غيره ، ختم على  
تلك الكتب خاتما مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها » .

والذى نريد ان نقوله ان التدوين لم يكن بدعة تحتاج الى  
دخول الفرس الى الاسلام ليتعلمها العرب ، وانما هم قد عرفوها  
قبل ان يدخل الفرس الاسلام، بل قبل ان يعرف العرب الاسلام .  
الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ، ولن يكون  
الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ولن يكون  
هذا الذى حفظه الا الكتابة . بل لعننا نكتفى بقسم القرآن  
اكريم ( ن . والقلم وما يسطرون ) لنريح ونستريح . .

والاغاني يروى لنا صورة جميلة عن العصر الاموى اذ يذكر  
ان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي — وهو  
اموى — قد اتخذ بينا فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات  
ودفائر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتادا فمن جاء علق  
ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتره فقرأه او بعض ما يلعب به  
فلعب به . .

والى هذا الحد من انتشار الكتب والكتابة بلغ الامر ،  
فهذه صورة لناد عماده الكتب والقراءة ، ولعله اقرب الى المكتبة  
العامّة منه الى النادى بشكله الذى نعرفه . .

والاستاذ أحمد امين يذهب في فجر الاسلام هذا المذهب  
الذى نذبه ، فيقرر أن العرب عرفوا التدوين من العصر الاموى  
او قبله بكثير ..

والحاحنا على هذه النقطة بالذات له سببه ، فانت ترى  
معى ان النقاد التفتوا الى النثر الذى عنى بالشكل والزخرفة  
واخذوا يدرسونه ويؤرخون لكاتبه ، بينما هم اهملوا اهمالا  
كتابا آخرين ونثرا آخر يعاصر هذا النثر الذى نقلوه بل يسبقه  
بكثر ، اعنى القصص المدونة والمنقولة عن الرواة فى كتب التاريخ  
والاخبار والطبقات .. وقد حاول الدارسون ان يبرروا هذا  
السلوك بادعاء أن هذا الذى جاءنا منه انما روى بالمعنى لعدم  
معرفة العرب بالقراءة والتدوين ولهذا فهم يرفضونه . وقد ردنا  
على هذا بأن أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك أن العرب لم يعرفوا  
الكتابة والتدوين وحسب ، وانما هم قد دونوا بالفعل ومنذ زمن  
مبكر جدا اساطير وقصص الامم السالفة واخبار ملوك العرب  
وشعرائهم .. وأكثر من هذا أنهم حافظوا على هذا التراث  
واحلوه المحل الاول من اعتبارهم قبل أن تنشأ دواوين الرسائل  
واصحابها من ذوى الصنعة الشكوية ..

بل أريد أن اذهب الى أكثر من هذا فأقرر أن القصص  
هى التى حفظت لنا الشعر الجاهلى بصوره المتعددة . ونظرة  
الى كتاب عبيد بن شرية فى اخبار ملوك اليمن ترىنا أن معاوية  
كان لا يرضى من عبيد قصة الا وهى محلاة بالشعر .. فيذكر

عبيد قصته ويذكر على لسان أبطالها الشعر الذى قالوه ، فاذا اغفل عبيد امر الشعر اسرع معاوية يقول له « سألتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله احد الا ذكرته » وكأنها القصة لا تصح عنده الا بالشعر يرد على السنة من يدور عنهم الحديث فيقول له « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ، ولو ثلاثة أبيات » ونفس ما نجده عند عبيد نجده عند وهب بن منبه الذى يذكر لك كل قصة مشفوعة بأبيات حتى ولو كان يتحدث عن آدم فهو يورد على لسانه شعرا ! .

وبعض هذا الشعر كما لاحظ الدكتور حسين نصار بحق شعر موضوع على من نسب اليهم لارضاء السامعين ، وكجزء من منهج تأليف القصص عند العرب . والثانى شعر جاء على السنة شعراء حقيقيين قد تجده فى دواوينهم . والواقع ان ظاهرة ورود الشعر على السنة أبطال هذه الروايات التاريخية انما تؤكد انها وضعت للقصص وليست للتاريخ . . فهذا المنهج نجده واضحا بعد ذلك فى الف ليلة وليلة وسيرة عنترة وسيف بن ذى يزن وغيرها . ففى هذه القصص لا يستقيم موقف له قيمته من مواقفها الا ويروى فيه شئ من الشعر ، بل وتلتزم بعض السير كسيرة سيف بن ذى يزن بنظم الأحداث شعرا بعد كل مرحلة من مراحل السيرة المروية نثرا . . وقد دعت هذه الظاهرة الدكتور طه حسين فى كتابه ( فى الادب الجاهلى ) الى الشك فى كل ما جاء بالكتب التى اعتمدت على هذه المصادر الاولى من شعر . . والذى نحب ان

نؤكد ان اصحاب هذه الكتب كانوا لا يؤرخون تاريخا حقيقيا .  
وانما هم كانوا يقدمون قصصا فنيا يقصد منسه الامتاع الفنى  
لا الحقيقة العلمية الخالصة فحلوه بالشعر كلما وجدوه، والا وضعوا  
الشعر ان اعجزهم ما جاء على السنة العرب . فهم ان وجدوا  
شعرا ذكروه ، وبهذا حققوا دون قصد حفظ صور من الشعر  
الجاهلى . والامر كان يحتاج بعد الى شىء من التحقيق حول  
ما اوردوه لاجرا ما الفوا ووضعوا ، واستخراج الشعر العربى  
الحقيقى مما ذكروه ..

واكاد اُزعم لك بعد هذا كله ان هذه الكتب وهذه الروايات  
المنتشرة فى الكتب هى اقرب الاشياء الى صورة النثر الجاهلى  
ونثر صدر الاسلام ، من كل ما اوردوا من خطب وسجع  
ورسائل . . فنحن نفهم ان النثر الفنى هو اداة التعبير عن  
الحياة ، هو اداة ترجمة مشاعر الامة واحلامها وامانيها ..  
ولا يهمننا فى بحثنا هذا ما دينا نقيمه على هذا الاساس ، توفر  
الصنعة الفنية او عدم توفرها .. ولن نفعل كأصحابنا هؤلاء  
الذين اخذوا من هذه الاعمال ما فيها من شعر فدرسوه ،  
واستخرجوا ما جاء بها من خطب وسجع وامثال فحفظوه ،  
وراحوا يستنبطون منه صورا زائفة للنثر ، وهم قد تركوا العمل  
الاصلى نفسه دون دراسة او بحث ..

والواقع ان دراستنا لهذا اللون من النثر ينبغى ان تبدأ  
عند هذه الكتب التى دونت فى صدر الدولة الاسلامية فهى

بلا شك صورة للنثر الجاهلى أو هى امتداد طبيعى له . . وهذه الكتب تعتمد كلها على القصة بل هى تقوم أصلا على انها رواية أحداث وسير وأخبار ، فلسنا مبالغين اذن ان قلنا ان الفن النثرى الجاهلى الاول كان هو القصة والرواية . . أما ما عدا هذا من صور كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة ، ودرسها أقرب الى درس اللغة منه الى درس الادب . . والدارسون القدماء حين اعتمدوا على الخطابة فى درس النثر انما كانوا يتناقضون مع أنفسهم ومع دراساتهم كل التناقض . فالخطابة عمل سياسى والرسائل بعد هذا عمل حكومى ديوانى ، وليس من الادب فى شئ كتابة لا تعبر عن نفس صاحبها أو نفس الامة التى ينتسب اليها . والخطابة والكتابة الديوانية أعمال وليست فنا ، أو بتعبير أدق حرفة وصناعة قد تدل على المهارة والحذق ، وقد نلمح فيها الذكاء والابتكار ولكننا لن نكتشف منها جوهر صاحبها وقلبه وعقله جميعا . . وانما هذه الامور لا يكشفها الا النثر الطليق الذى خرج من ضمير الشعب ليعبر عنه ، والذى عاش فى وجدان كاتبه احلاما وخيالات واساطير ، ليخرج الى الناس صورة ممتعة لما يحسون ، واستجابة طبيعية لموقفهم من الحياة والمجتمع والكون جميعا . .

وليس من غدر بعد هذا يقف دون دراسة هذا التراث القصصى الذى تبقى لنا فى هذه الكتب . .